مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 11 عدد: 1 السنة: 2022
ص: 525 - 549 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الرمز الأسطوري في سيفيات أبي الطيب المتنبي

The Legendary Symbol in the Swords of Abu al-Tayyib al-(Mutanabbi

عايدة سعدي/ aida saadi*

مخبر الدراسات اللغوية والأدبية.

جامعة محمد الشريف مساعدية–سوق أهراس/الجزائر.

Mohamed- Sherif Messaadia University -Souk Ahras,Algeria

a.saadi@univ-soukahras.dz

تاريخ الإرسال: 2021/06/30	تاريخ القبول: 2021/08/14	تاريخ النشر: 2022/03/02

ملخص البحث

يتوفر ديوان المتنبي على قصائد فريدة، مكنته من أن يملأ الدنيا ويشغل الناس بحق، ومن بين هذه القصائد، تلك التي نسجها في ممدوحه سيف الدولة، أو ما تسمى بالسيفيات، وقد ارتبطت شخصية الأمير الحمداني بكثرة الحروب والمعارك التي كان يشنها ضد العدو سواء في الداخل (العرب العصاة)، أو في الخارج(الروم)، ولم يخرج وصف الشاعر لممدوحه/المثال عن معاني الشجاعة الخارقة للمألوف، بما جعله يتفوق على القوى البشرية، وهو أمر يقربه من عالم الأساطير، ولعل ذلك عائد بالأساس إلى رغبة الشاعر الجامحة في وصف نموذج أعلى يجسده شخص سيف الدولة، في زمن عصيب، أين تهاوت الخلافة العباسية، ورحلت القيم، وضعف الوازع الديني، وأصبحت العروبة في خبر كان.. فرسم هذا النموذج رسما فنيا يروم الشاعر من خلاله تغيير الواقع الحاضر، وبعث النخوة العربية، وبذلك تستمد شجاعة البطل ميزتها من الأسطورة، وقد قمنا في هذه الدراسة بمحاولة استجلاء حضور الأسطورة في سيفيات المتنبي وتنوعها، وكشف أبعادها في شعره.

الكلمات المفتاح:شعر، أسطورة، متنبي، سيف دولة، حرب، عدو.

Abstract:

Al-Mutanabbi's Diwan is replete with unique poems, which enabled him to fill the world and occupy people rightly, and among these poems, those he wove in praise of Saif al-Dawla, or the so-called swords, and the personality of Prince Hamdani was associated with the many wars and battles he waged against the enemy, whether At home (the disobedient Arabs), or abroad (the Romans), the poet's description of his praise / example did not go beyond the meanings of extraordinary courage, which made him excel over human forces, which is

* عايدة سعدي. a.saadi@univ-soukahras.dz

something that brings him closer to the world of myths, and perhaps this is mainly due to the poet's desire The unbridled description of a higher model embodied by the person of Saif al-Dawla, in a difficult time, where the Abbasid Caliphate collapsed, values departed, religious scruples weakened, and Arabism became in the news that was .. So this model drew an artistic drawing through which the poet aims to change the present reality, and send Arab pride, and thus the hero's bravery derives its advantage from the legend, and in this study we have tried to elucidate the presence and diversity of legend in Al-Mutanabbi's swords, and reveal its dimensions in his poetry.
key words:poetry,legend,Mutanabbi, Saif al-Dawla, war, enemy.

مقدمة:

الأسطورة أقدم سلوك بشري مارسه الإنسان البدائي، في عصوره الغابرة، فبعد أن عجز فكره البسيط عن تفسير كل ما يحيط به في الكون، عمد إلى إنتاج نصوص فريدة أبدعتها مخيلته، تروم تحقيق التناغم والوئام بينه وبين الكون ومختلف عناصر الوجود. تفسيرات وضعها وآمن بصحتها، وإن كانت عند البعض اليوم ضربا من الخيال والوهم، لاسيما بعد تفشي العلم والتفسير العقليين لكثير من الأشياء والظواهر الكونية والوجودية.

ومن ثمة جاءت الأسطورة لتعكس تفكير وتصور الإنسان الأول المتسم بالبساطة، التي انعكست بدورها على لغته، فنحت-بذلك- منحى تبليغيا، تواصليا، بأسلوب يخلو من الفنية، وإن كان الميل فيها إلى الخيال الجامح، لنبوعها عن ذات متحررة، وضعت نصب عينيها الكشف عن الحقيقة، ومحاولة تفسير الظواهر الغامضة قصد الإقناع بصحة ما تذهب إليه.

وقد كثرت الدراسات حول "الأسطورة" وتنوعت، وتعددت تعريفاتها على ما فيها من تقارب وتباين، ولا عجب في ذلك، فالأسطورة-بما تتميز به من سحر- شغلت الكثير من المفكرين والباحثين قديما وحديثا، لما اختزنته من ألوان الفكر الإنساني عبر التاريخ لمختلف الشعوب، ولما حملته من هواجس وطموحات وهموم، فقدمت بذلك صورة صادقة عن حياة المجتمعات بطابع قصصي مميز وشيق.

ونظرا إلى كون الأديب عامة والشاعر خاصة يميل إلى استمداد مادته من اللاوعي الجمعي –باعتباره إرثا إنسانيا-في صوغ تجربته الشعرية، فقد اغترف منها ما يخدم رؤيته، ويوضح موقفه من العالم والوجود عبر مختلف العصور.

ولم يحد الشاعر العباسي"أبو الطيب المتنبي" عن هذا الميل والتوظيف، فقد ظلت الرواسب الأسطورية راسخة في فكر العديد من الشعراء حتى بعد مجيء الإسلام.

لقد كثرت الدراسات التي تطرقت إلى شعر"المتنبي"، وما فيه من تشكيلات فنية، ومنها ما تناولت حياته، وآثاره، وديوانه، فأثار الشاعر جدلا كبيرا إلى أن ملأ الدنيا وشغل الناس.

ويتجه هذا البحث إلى مقاربة شعر المتنبي الذي نظمه خلال تواجده في إمارة سيف الدولة الحمداني، وبالضبط تلك القصائد التي أشادت بمعارك الممدوح وببطولاته، محاولين الكشف عن الملامح الأسطورية فيها، ومن هذا المنطلق تسعى الدراسة إلى الإجابة عن التساؤلات الآتية:

-ما هي أبرز الرموز الأسطورية التي وظفها الشاعر"المتنبي"؟

-هل حافظ الشاعر على السياقات ذاتها كما تجلت في الأسطورة الأصل؟، أم نحى منحى تجديديا في استدعائها؟.

ولعل هذه التساؤلات وغيرها كانت العتبة الأولى لهذه الدراسة، التي اتخذت منحيين: نظري: ونتناول فيه توطئة نظرية حول الأسطورة ومفهومها، وحدها عند العرب القدماء، وأبرز أساطيرهم، كما سنتطرق إلى حضور الأسطورة في العصور التالية للعصر الجاهلي أي بعد مجيء الإسلام، ومنحى تطبيقي: حاولنا فيه استخراج أبرز الرموز لنبحث في خلفياتها الأسطورية في علاقتها مع الموروث الأسطوري الثقافي.

ويقوم منهج الدراسة على الوصف والتحليل، انطلاقا من نماذج منتقاة من شعر المتنبي في سيف الدولة، بعد فك شفراتها للولوج إلى أسرار وخبايا الرموز الأسطورية فيها، وكيفية استدعاء وتوظيف الشاعر لها.

توطئة:

تنوّع حضور الأسطورة عند الشعوب القديمة، فمنها ما ارتبط بالطقوس الدينية، ومنها ما تعلق بكائنات خرافية خارقة للقوى البشرية، دون أن نتجاوز في ذلك الأساطير الكونية والرموز الحضارية.

وكانت الأسطورة في بداية نشأتها مرتبطة بمحاولة تفسير الفرد لما يحصل في عالمه من ظواهر غريبة عجز عن تفسيرها، وتبرير حصولها.[1]

ولفظة "أسطورة" في المعجم اللغوي: من الفعل سطر، والسطر: الصف من الكتاب والشجر والنخل، والسطر:الخط والكتابة، وهو في الأصل مصدر. والأسطورة هي الأحدوثة، والأساطير: الأباطيل، والأحاديث التي لا نظام لها.[2]

وقد ظهر فرع جديد من فروع العلم يعنى بدراسة وتفسير الأساطير عند الغرب يطلق عليه Mthology والشق الأول من الكلمة Mytho مأخوذة من اليونانية Mutho التي تعني حكاية تقليدية عن الآلهة والأبطال، أما الشق الثاني Logy فيعني العلم.[3]

ونعثر على لفظ "أسطورة" في القرآن الكريم، بدليل قوله تعالى: " يَقُولُ الذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ"[4]، فقد ارتبط لفظ "أساطير" في الآية بأحاديث الأوّلين، التي اتصفت-في نظر الكفار- بالقول الملفق، وبالترهات التي لا حقيقة لها، فقرنوا كلام النبي- صلى الله عليه وسلم- بها.

ومن بين التعريفات التي تعرضت إلى مفهوم الأسطورة قول الباحث "فراس السّواح": هي: " حكاية مقدسة يلعب أدوارها الآلهة وأنصاف الآلهة، أحداثها ليست مصنوعة أو متخيلة، بل وقائع حصلت في الأزمنة الأولى المقدسة، إنها الأفعال التي أخرجت العالم من لجة العماء، وهي حكاية انتقلت من جيل إلى جيل بالمشافهة ."[5]

تتوفر الأسطورة-في هذا المفهوم- على عناصر الحكاية، من شخوص ما ورائية تمثلها الآلهة، إلى جانب الوقائع والأحداث والزمان، كما يشير الباحث إلى نقطة مهمة إلى جانب كل ذلك، إذ أعاد الأسطورة إلى أصلها من حيث اعتبارها حقائق سعى الإنسان الأول -بواسطتها- إلى تفسير ما أشكل عليه من أسرار الكون والوجود، وهو بهذا يجرد الأسطورة من عنصر الخيال، جاعلا من المشافهة وسيلة انتقالها من جيل إلى جيل، ولا يخفى علينا ما لهذه الوسيلة من دور في الزيادات التي تطرأ على بعض الأساطير نظرا لتعدد رواياتها.

والأسطورة —كما يرى "علي البطل"- تلك القصة القديمة التي تحكي أفعالا مرتبة، تقوم بها قوى ما فوق الطبيعة، ولها عالمها الخاص، أما الموضوع الذي تدور حوله، فإما أن يكون ممارسة دينية، أو تعليلا لظاهرة، أو سردا لأحداث ضاربة بجذورها في القدم. وقد كان للعرب أساطيرهم الخاصة التي ترتبط بمعبوداتهم وأحداث حياتهم.[6]

إن الأسطورة-من هذا المنطلق ترتبط بواقع الشعوب وحياتهم على تنوعها:سواء كانت لغرض ديني أو لتفسير لظاهرة كونية وغير ذلك.

وبما أن الأسطورة جزء مهم من تراثنا، إلا أنها لم تحض بالاهتمام الكبير بسبب ربطها باللامعقول، وبالعقائد الباطلة.[7] رغم ذلك نجد أن الأسطورة لها ارتباط وثيق بواقع الإنسان المعاصر،

حيث يتخذها المبدع وسيلة لفهم العالم من حوله، بطريقة تختلف عن وعي الإنسان القديم به، لتصبح معادلا موضوعيا للعالم ونزعته الفرد اللاعقلانية، المتحررة من قيود العقل.

مع مرور الوقت، أصبحت الأسطورة تدرس وفق منهج علمي، وأصبحت تنم عن تصورات ومواقف تجعلنا نطل على فلسفة الإنسان في الوجود، ومحاولاته الفكرية التي تلخص تجاربه وماضيه، إنها تعد تسجيلا للوعي الإنساني واللاوعي في آن واحد[8]، وبذلك نستشف تطور النظرة إلى الأسطورة بمرور الزمن.

كانت الأسطورة نافذة الإنسان العربي ينشد من خلالها الفرح والسعادة، لما تخلقه في نفسه من حالة توازن نفسي مع المحيط والمجتمع الذي يعيش فيه، وما تضفيه من صفات قدسية غامضة على مواضيعها وأشيائها وشخوصها. وبذلك يقيم الشاعر حلقة وصل مع الماضي الأسطوري، يسافر في أعماق المعتم والمجهول، باحثا عما يحقق له توازنه النفسي[9]، فيعيد إليه ثقته بنفسه، خاصة مع الخيبات والانتكاسات التي اصطدم بها في عصره. وكأنه يحن إلى خلق عالم مثالي، يقوم بديلا عن عالم القهر والظلم والفساد.

ولعل من أكثر الفئات اتصالا بالأسطورة–رؤية وتوظيفا، وتفسيرا للعالم– نجد فئة الشعراء، الذين وظفوا– بما يحوزون من مهارات فنية عالية– الرمز الأسطوري لعدة مقاصد، أبرزها الفرار من الواقع وخيباته، إلى عالم ينشدون من خلاله حريتهم المفقودة.

إنّ الشعر والأسطورة ملتحمان: "فالشعر ينهل من الأسطوري مادته وصوره، ذلك أن الشعراء يتفاعلون مع ما ينتجه الفكر الأسطوري، فيستلهمون القصص الأسطورية في لغة استعارية أو في خطاب غامض يجعل الأدب يحلق في مدار الرمز."[10]فعنصر الخيال القاسم المشترك بين الأسطورة والشعر، إذ كلاهما يبتعد عن التصوير المباشر للأشياء، ليحلق في سماء اللاواقع، فينقل الواقع بطريقة غير مباشرة، بعيدا عن العقل.

–الأسطورة عند العرب:

لو تتبعنا ما في كتب التاريخ والأدب القديم، حول ما إذا كان للعرب أساطير أم لا، فإننا لا نكاد نعثر إلا على الشيء اليسير منها، وورد مبثوثا في بعض النصوص هنا وهناك، وهو الرأي الذي يذهب إليه "أبو القاسم الشابي" في كتابه"الخيال الشعري عند العرب"، حيث يرى أنه وإن وجدت تلك النصوص التي نستدل من خلالها على وجود الأسطورة عند العرب، فإن أهم ما تتسم به تلك النصوص هو الاختلاط، والاضطراب، دون وجود نظام يحدها، أو قانون ينتظمها، أو كتاب خاص يجمعها، على نحو ما نجده في

أساطير باقي الأمم، فهي مجرد نصوص متفرقة في ثنايا كتب الأدب والأخبار يصعب جمعها، ومنها ما اتصل بعقائد العرب في الجاهلية قبل مجيء الإسلام، ومنها ما اتصل بعاداتهم، أو بتاريخهم القديم، وقد توصل الباحث بعد تقص وبحث في الموضوع، إلى أن العرب لم يهتموا بالأساطير اهتمامهم ببقية الفنون الأخرى، مقارنة باليونان والرومان، وقدماء المصريين.[11]

ويذهب إلى هذا الرأي آخرون، فيرون أن وصول الأساطير العربية إلينا كان عن طريق النصوص الأدبية، لاسيما الشعر، إذ مثل الشعر:" الأداة المفضلة لحفظ الأسطورة وممارستها، وترسيخها في الذاكرة الجمعية".[12]

ولعل ندرة الأساطير التي وصلتنا عبر تلك النصوص تعود بالأساس إلى انعدام الكتابة، لذا يتعذر الإلمام بكل ما قيل في ذلك الزمن من أساطير، كما أن الأدب الذي يتضمن شيئا من تلك اللمحات الأسطورية ضاع أكثره لنفس السبب السابق. أما ما وصل إلينا من نصوص فكان من خلال الأدب الجاهلي، الذي دون قبل الإسلام بفترة قصيرة، فمعظم ما كتب عن تاريخ الجاهلية كان بين 500 و622، أي مئة سنة قبل الإسلام، وهذه الكتابات وصلتنا عن طريق النقوش والرواة، وأخبار متقطعة مبعثرة كالأساطير البابلية المكتشفة في الألواح السبعة، ونقوش الساميين الشماليين، أما الأدب الجاهلي فوصلنا من خلال الكتب التي دونها أصحابها حول هذا الأدب الجاهلي كسيرة ابن هشام، وحياة الحيوان للدميري، وأيضا في كتب المتأخرين ككتاب الأغاني، ومروج الذهب وغيره.[13]

ولم تنعدم الأسطورة في الفكر العربي القديم بحكم أن العرب أمة شاعرة تميل إلى توظيف الخيال، الذي هو عماد الأسطورة، وقد بقيت الأسطورة في الذهنية العربية الجماعية حتى بعد مجيء الإسلام، إذ ظلت راسخة فيها على مر الأجيال، إلا أن "هذه الأساطير العربية لا تطول أحداثها إلا فيما يتعلق بالأنبياء والخوارق، أما التي اقترنت ببعض المعتقدات كالأصنام والاعتقاد في الكواكب والحيوان والحياة على الأرض، فلم تصل بأبطالها إلى درجة التأله ولم تصل إلى المفهوم الأساسي للأسطورة".[14]

وقد ورد ذكر اللفظ "أسطورة" مقترنا بكلمات أخرى عند العرب القدماء، تنتمي إلى حقل دلالي قريب منها، نحو كلمات:"خبر"،و "حديث"، و"نبأ"، و"خرافة"، و"قصص"، و"مثل".[15]

وإن كانت المصطلحات السابقة تشترك في إحالتها على مرجع بعينه، وهو الكلام الذي يخبر عن كل ما تعلق بأخبار الماضين وسيرهم في زمن مضى، إلا أن لكل منها فروق دلالية دقيقة.[16]

وتعد الخرافة من أشهر المصطلحات التي جاء ذكرها مرتبطا بلفظ الأسطورة، حتى إن المعنى يلتبس بينهما نظرا للشبه الكبير بينهما، فإن كانت" الأساطير في نظر أصحابها الذين ابتدعوها عين الحقيقة، [فإنها] في نظر سواهم لا تؤخذ مأخذ الجد، بل هي عين الوهم والباطل والمحال. وأما الخرافة فتتميز عن الأسطورة بأنها ليست محل اعتقاد من أي كان، لا من الذي يقصها ويرويها، ولا من الذي ينصت إليها".[17]

بناء على ذلك يمكن القول إن الأسطورة هي في أصلها مجموعة من الأحاديث المبتدعة، اعتبرها الناس لردح من الزمن حقائق فآمنوا بها، أبطالها من الملوك أو الآلهة، تشتمل على بعض الحقائق التاريخية، كحرب طروادة مثلا. وما يجعلها تنزاح عن دلالاتها الأصلية هو الزيادات التي طالتها عبر الأجيال.[18] على خلاف "الخرافة" التي تتسم بالكلام الكاذب، الذي لا يتقبله العقل والمنطق، فعنصر الحقيقة متوفر في كل أسطورة رغم قيامها على عنصر الخيال.

وإلى جانب ورود اللفظ في معجم اللسان، كما سبقت الإشارة في بداية البحث، فقد أشار إليه–أيضا–"الأزهري" في تهذيب اللغة، الذي قال ما حكاه الضرير عن الأعرابي: أسطر اسمى، أي جاوز السطر الذي هو فيه، وإسطاره بالكسر، واسطير واسطرة وأسطور وأسطورة بالضم، إذا جاء بالأحاديث تشبه الباطل: يقال هو يسطر ما لا أصل له، أي يؤلف.وسطر يسطر إذا كتب.[19]. وفي تاج العروس أورد "الزبيدي" عن الأسطورة ما معناه يقال هو يسطر ما لا أصل له أي يؤلف، إذا جاء بأحاديث تشبه الباطل. وفي حديث الحسن سأله الأشعث عن شيء من القرآن، فقال له: والله إنك ما تسطر علي بشيء أي ما تروج، يقال سطر فلان على فلان إذا زخرف له الأقاويل ونمقها، وتلك الأقاويل الأساطير.[20]

فلفظ"أسطورة" انطلاقا من مفهومها عند القدماء العرب لم تخرج عن معنى زخرف الكلام، وزيفه، والمبالغة فيه.وقد ارتبطت الأسطورة عندهم بموضوعات متنوعة كالآلهة، والأفعال الخارقة.

لقد أكد لنا القرآن الكريم في أكثر من سياق على مرور العرب قبل الإسلام بالفكر الأسطوري، يأتي ذلك من خلال بث الدعوة ونشر الدين الجديد، الذي يأتي على أنقاض المعتقدات الوثنية القديمة، والتي دان بها قدماء العرب، وما عبارة " أساطير الأولين" الوارد ذكرها في القرآن إلا دليل على تلك التصورات الدينية والروحية للعرب القدماء.

ومع مجيء الدين الجديد بدأت هذه التصورات تأخذ في التلاشي بسبب وثنيتها المتناقضة مع الإسلام، لكن بالرغم من القطيعة الدينية، والثقافية والتدوينية، بهدف اندثار الأساطير العربية، إلا أن

مادتها وجذورها الأسطورية لم تزل مترسبة فتداولتها العقول، ف"النماذج الأسطورية تصل الشاعر باللاوعي الجمعي، نماذج تختزن في ذهن الفرد تفسر علاقاته بذاته وبالموجودات لتسافر معه في الزمان، وتفيض على هذا الزمان لتصبح نماذج أصلية تخص مجموعة بشرية وتتوسع دائرتها أحيانا لتخص كل البشرية.بذلك يعد الأسطوري من أهم الاتجاهات التي تفتح الصورة الشعرية على الرمز لأنها تتجاوز بها الحقيقة لتفتحها على أعراف حضارية فكرية فينفتح الشعر بذلك على دروب عميقة، ويسمح للخيال بأن يسبح به في دروب الإبداع والفن".[21] تتحول –إذن–مادة الأسطورة إلى عناصر أسطورية، فتتبدى تجلياتها على شكل ممارسات أو عادات سحرية، وقد تتجلى أيضا على شكل عادات وطقوس معتقد شعبي غير إسلامي، وغيره مما هو سائد لدى القدماء من عادات وتقاليد ومعتقدات شعبية عربية ذات الجذور الأسطورية، التي لم تزل شرارتها إلى زمننا هذا.[22]

لقد عرف العرب–إذن–الأسطورة بشتى أنواعها، كالأساطير الكونية أو أساطير الخلق والتكوين، والأساطير، والأساطير الطقوسية أو الدينية، والأساطير الرمزية، والتعليلية، والحضارية، وأساطير تتعلق بتأليه البطل ونظيره من الكائنات الخارقة في الزمن الغابر.[23]

إن الذي يستقرئ أساطير العرب في الجاهلية يجدها تخضع لسلطان الحواس، نظرا لطبيعة البيئة الصحراوية المكشوفة، التي انعكست على حياته، وألفاظه وتعابيره، فأصبح ميالا إلى الوضوح والبساطة، سواء في سلوكياته، أو في بياته، متجنبا التعقيد، يصف كل ما تقع عليه عينه من ماديات، وهو ما يفسر قلة الخيال في شعره وأدبه، "فالآلهة العربية لا تنطوي على شيء من الفكر والخيال، ولا تمثل مظهرا من مظاهر الكون، أو عاطفة من عواطف الإنسان، وإنما هي أنصاب بسيطة ساذجة شبيهة بلعب الصبية وعرائس الأطفال، وبقية الأساطير الدينية لا تفصح عن فكر عميق أو شعور دقيق، ولا ترمز لمعنى من المعاني السامية، إنما هي أدنى إلى الوهم منها إلى أي شيء آخر".[24]

لقد ألهمت الأسطورة الشعراء الجاهليين، وإن ظلت تصوراتهم لا ترقى إلى ما هو ما وراء الطبيعة، إذ ارتبطت بواقع العربي، وبطبيعته المحيطة، ونشأة الكون والآلهة، التي تتحكم في مظاهره كالشمس والقمر، والنجوم والكواكب، بعيدا عن المظاهر الروحية.[25]

ومن أبرز الرموز الأسطورية التي تجلت في إبداعات العرب القدماء نجد أسطورة "الغول"، التي آمنوا بها واعتقدوا بصحتها، فتطالعنا بصورتها المرعبة،وهي: "حيوان خرافي، يزعمون أنه كريه المنظر، شنيع

الخلقة، يألف الغيران الموحشة، والفيافي المقفرة، ليضلل الناس ويلهو بالجماجم، ويدعي أبطالهم أنهم شاهدوها وحاربوها فانتصروا عليها، وقد أولع "تأبط شرا" بوصفها والتحدث عنها في شعره".[26]

ومنها أيضا "الصدى أو الهامة"، وهي: "طائر يزعمون أنه يخرج من رأس القتيل الذي لم يؤخذ بثأره فيزقو عند قبره، ويقول: اسقوني من دم قاتلي ...فإذا أخذت بثأره طارت".[27] إلى جانب أساطير الطير الأخرى كأسطورة "النسر"، الذي كان رمزا للإله نسر معبود عرب جنوب الجزيرة العربية قديما، ورمزا للشمس وشعارا للملك، ثم تحول من هذه الدلالة إلى أخرى رمزية تعلقت بشخصية شبه أسطورية تمثلت في شخصية "لقمان" ونسوره السبعة، وضرب به المثل في طول العمر.[28] ونحو طائر "الغراب"، الذي دل على المجهول في الزجر والعيافة، وكدليل للعثور على ماء زمزم، ودليل أيضا في قصة صالح وثمود.[29].فطائر الغراب يحمل رسالة ما، وله دور الموجه والدليل.

وتعد "العنقاء"،ذلك الطائر الخرافي، من أشهر الأساطير التي تناقلها العرب القدماء، سواء في أشعارهم أو حكمهم.[30] ونسجت حولها عديد من القصص ليس من طرف العرب وحدهم، وإنما في حضارات الشعوب الأخرى أيضا، وفي المخيلة العربية يصور كطائر غريب الشكل، يجمع بين الأوصاف الإنسانية والحيوانية،[31] يوصف بجماله وقوته،وحدة بصره، وقيل يعمر طويلا ثم يحرق نفسه ليبعث من جديد وهكذا، ليصبح فيما بعد رمزا للبعث والتجدد. وورد ذكرها في حكايات "ألف ليلة وليلة"، لاسيما في رحلات السندباد الخيالية.

ومن تصوراتهم أيضا ذات الرواسب الأسطورية نجد فكرة "المسخ"، فهم يؤمنون بمسخ الإنسان حجرا، أو العكس، فمن الصخور نجد"الصفا والمروة"، ومن الجبال "أجأ وسلمى" في بلاد طيء، ومن الأصنام "آساف ونائلة".[32]

ومن معتقداتهم القديمة اعتبار الكلب الأسود من الجن، فقد ورد في كتاب "الجاحظ" أمره-صلى الله عليه وسلم-بقتل الكلب الأسود البهيم، لاعتقاد العرب بأنها من الجن.[33].وكلمة "جن" وإن دلت على جنس يقابل جنس الإنسان، فإنها كذلك لفظة جامعة لكل من الملائكة والشياطين، والغول والسعلاة من جهة ثانية،[34]وقد اختلف العرب قديما حول حقيقة وجودها بين مؤيد ومعارض.

وتظهر إلى جانب ذلك كله فكرة "الطوطمية"، حيث قدس العرب القدماء الحيوان، فحرموا أكله أو لمسه، أو حتى ذكر اسمه، بسبب اعتقادهم أنه يدافع عن القبيلة في ساحات القتال، وينذر أهلها بالخطر المحدق قبل وقوعه بعلامات معينة بما يشبه الطيرة.[35].هذا، وكان للعرب معرفة بالعرافة، التي مثلت طورا من

تطور أوهام العرب، بدء من الطيرة والتفاؤل، والتشاؤم، وصولا إلى عبادة وتقديس الأصنام، والقسم بالأزلام.[36].دون أن ننسى تلك الأساطير التاريخية، التي تعلقت بقصص الأمم العربية البائدة، التي ورد ذكرهم في القرآن الكريم، كقصص عاد وثمود، وطسم، وجديس، وغيرهم، وما ارتبط بحياتهم من معتقدات وحروب.

لم يمنع-إذن-انتشار الدين الجديد من انتقال بعض الرواسب الأسطورية إلى الشعراء بعد مجيء الإسلام، وكان تعاملهم مع هذا الإرث الأسطوري تعاملا رمزيا، مستعينا بما اختزن بذاكرته منها، ليوظفها في سياقات جديدة بواسطة التشكيل الشعري، فرغم التطور العلمي الذي امتازت به العصور المتأخرة، فإنها لا تزال ملهما أساسيا للمبدعين والشعراء، دون أن يعني ذلك ترديد نفس سياقات ذلك الموروث الأسطوري.

وقد توفرت سيفيات"أبي الطيب المتنبي"-كشأن شعراء العصر- على مرجعيات أسطورية هامة، وهي تنم عن سعة ثقافة الشاعر من جهة، وتربط بطولات ممدوحه "سيف الدولة بعوالم وقدرات خارقة بواسطة المبالغة، من هنا يأتي استدعاء تلك الرموز استجابة لنوازع نفسية تقبع في نفس المتنبي، ترمي من ورائها إلى خلق بطل أسطوري قادر على بعث الخلافة العربية بعد أن تهاوت أمام الروم.

وفي هذا الصدد سنعرض أبرز الأساطير التي احتوتها سيفياته، والتي مثل الممدوح/البطل محورا لها.

أولا: عنصر الأسطورة:

1- أسطورة البطل:

ارتبطت صورة البطل منذ القدم بصورة القمر"فالرجل الكامل رمز ممثل للإله الأب- القمر... أما ارتباط الرجل المثال بالقمر، فهو شكل من أشكال التقديس التي يخلعها الذهن البدائي على العظماء، ولقد عبدت الملوك والأبطال في الديانات القديمة نتيجة وضعهم المتميز في المجتمع. ولقد احتفظ الشعر العربي بآثار دالة على هذا، فكثيرا ما يربط بين الممدوح وبين الهلال، وكثيرا ما تظهر في صورته مشابه بين ظروفه وظروف الثور الوحشي"،[37] من هنا ارتبطت صورة البطل بالقداسة عند القدماء.

ومن أمثلة ربط الشاعر البطل (الممدوح) بالقمر، قوله بخصوص رسول الروم:

-و أقْـبلَ يمـْشِي في البسـَاطِ فما درَى إلَى البحْر يسعْى أمْ إلى البدْر يرتْقي[38]

و قوله:

-مـَا لمنْ ينْصِبُ الحَبائلَ فـــــي الأرْ ضِ ومَرْجاه أن يصيد الهلالا[39]

شبه الشاعر سيف الدولة بالبدر والهلال، بل إنه يتفوق عليها جميعا، فهذا التشبيه أخفى وراءه رواسب أسطورية ضاربة في القدم، إذ "صورة الممدوح في الشعر الجاهلي، لا تتصل بصورة القمر أو الهلال أو البدر أو الشهاب لمجرد التشبيه، أو التعبير عن رفعة الشأن أو وضاءة الوجه وبهائه وما إلى ذلك، ... بل هي تمتد إلى عمق تراثي قديم يحاكي الأصل الأول لصورة الممدوح في تصاوير وأناشيد الكهان والسحرة، وتتأثر بالنظرة الدينية الأسطورية، التي كانت تربط زعماء القبائل وشيوخها، وساداتها بالآلهة التي تعبدها فيما مضى من تاريخها القديم"،[40] فلم يكن من الغريب إذن ارتفاع الشعراء بممدوحيهم إلى مراتب سامية، خاصة بعد أن جعلتهم مجتمعاتهم رمزا أو بديلا للإله المعبود في نفوس أبناء تلك المجتمعات، وأثناء تأتيهم الطقوس في المواسم والمحافل،[41] واللافت للنظر في المثال الأول أن المتنبي ربط الممدوح بالبحر، وكأنه ينصبه"إلها من آلهة الخصب، تأكيدا لنموذج الحياة والخصب والانبعاث من خلال إقصار الرزق عليه "[42]، فهو واهب الحياة للأعداء، وإن شاء منعها عنهم. ومن معاني التقديس التي حظي بها سيف الدولة قول الشاعر فيه:

– تجاوزتَ مقدارَ الشجاعة والنُّهَى إلى قولِ قومٍ أنْت بالغيبِ عالم[43]
وإنهّم عبيدكَ حيث كانَـــــــوا إذا تدْعُو لحادثةٍ أجابَـــــــوُا[44]
– وتملْك أنفُسَ الثّقلينِ طـــــــراّ فكيفَ تحُوزُ أنفُسَها كـــــلابُ[45]

يرتفع الشاعر من خلال التناص الأسطوري الذي دلت عليه عبارات: "أنت بالغيب عالم–إنهم عبيدك– أنفس الثقلين"، بممدوحه لمصاف الآلهة، فهو عالم للغيب، تقام له الشعائر والعبادات، من قبيل دعاية الشاعر لأوصافه الخارقة، التي بلغت أوجها حينما نسب الشاعر صفة التحويل أو المسخ لهذا الرجل المثال في قوله:

–ألمْ يحذروا مسْخ الذي يمْسخُ العدَى ويجعلُ أيدي الأسْد أيدِي الخرانقِ[46]

يتحول البطل إلى كائن أسطوري، وقد بلغ الدرجة القصوى في البطش بالأعداء وبث الرهبة فيهم، فهو مالك لأرواحهم، يقبضها وقتما يشاء.

لم يكتف الشاعر باستحضار صورة الضياء والنور إلى شخص البطل/الممدوح سيف الدولة، التي عرف بها الإله القمر، بل نجده إلى جانب ذلك يتوقف عند بعض صفات البطل/الملك، والهلال المعنوية كالخير والكرم والجود، والعفو عن الأسرى، وهذه الصورة كثيرة الإلماح إلى الصفات المعنوية التي يجسدها إله الخير. وفي هذه الخلال يكمن وجه الشبه بين صورة الرجل/المثال، وكذا صورة القمر الإله.

يحضر هذا المعنى جليا في قول الشاعر بخصوص كرم ممدوحه:

–طِوال قنا تطاعِنها قِصـــــــــارُ وقطْرُكَ في ندَى ووغَى بحارُ[47]

–إذا مطرتْ منهمْ ومنْك سحائبُ فوابلهُم طلٌّ وطَلّك وابـــــلُ[48]

ترتبط صورة البطل– من خلال المثالين– بالماء، "و للملوك القدرة على إنزال المطر... وإن العلاقة بين الملوك والمطر من الأمور التي درجت البشرية على الاعتقاد بها. "[49]و اتخذ الشاعر من السحاب وما تعلق به من مطر، والوابل، والطل والبحر رموزا للخصب والنماء والانبعاث، اتخذها للتعبير عن عطاء الممدوح (سيف الدولة)، يرفعه من شخص عادي كريم إلى واهب للحياة، للإنسان وباقي المخلوقات، فكرمه لا يبلغه كرم السحاب، هذا الأخير الذي غدا ثانويا مسلما مهمته للممدوح.[50] وإلى جانب ما يتمتع به من كرم، عفو، فإنك تجده صفوح لمن تجمعه بهم علاقة نسب قوية –رغم ما يعرف عنه من الصلابة والقسوة–كقول الشاعر:

–و أنْت أبرّ منْ لوْ عقّ أفْنىَ وأعْفىَ منْ عقُوبتهِ البوار[51]

وإن اشترك الممدوح/البطل مع القمر (الإله) في صفات النور، الأغر، الأبيض، إلا أنه مثله "فياض". فصفة الفيض"تحمل كل الميراث القديم، القمر فياض لارتباط أسطورته بالمطر."[52] كما أن صفتي "أبيض/فياض"ترتبطان بمساق أسطوري يكرر أحداث صورة الثور الوحشي بشكل مقنع، إلا أنه يعطي الترابط بين الصورتين بوضوح، فيدا الممدوح غمامة، كما أن صورة الكريم ترتبط بالليلة الشتائية دائما، كما ترتبط بها صورة الثور الوحشي،[53] فالناس يترصدون البطل، ليصيبوا شيئا من كرمه، فنلفيهم حول قبابه منتظرين، مسرعين، وكأنهم كلاب الصياد، أو عند الأصائل، وقت هطول المطر على الثور الوحشي، هذا في السلم. أما في الحرب فهو يكر في الأعداء مسرعا كأنه الثور الوحشي في كره على كلاب الصياد، فيصرعها، ويغدو منتصرا.[54]و قد تجلت الثنائيتان الضديتان (الكرم/البطش) في شخص سيف الدولة/البطل المثالي، في قول المتنبي:

–فبُزِركتَ منْ غيثٍ كأنّ جلودنَا بهِ تنبتُ الدّيباجَ والوشي والعصبا[55]

–و كنتَ السّيفَ قائمُه إليهـمْ وفي الأعْداَء حَدّكَ وَالغـــــرارُ[56]

ربط "المتنبي" في مدحه لشخص سيف الدولة في حربياته، بين صورة الرجل/المثال، وبين صورة القمر والثور الوحشي المقدستين"و يأتي هذا الربط في حالة السلم بصفة الكرم، وفي حالة الحرب بصفة البطولة، وهما الصفتان اللتان لازمتا المديح في شعر ما قبل الإسلام ... فقد ظلت الصورة المثالية للرجل

الكامل مجازا حيا لفترة طويلة في الشعر الإسلامي."[57] ومما سبق يمكن أن نلخص ارتباط البطل المحارب/سيف الدولة، مع قصة الثور الوحشي في ما يلي:

*وصف كل منهما بالبياض الذي يتجسد باقترانه بالقمر، أو النجوم أو الشهاب، شعاع الشمس.

*اقتران كل منهما بالسيف"إنه [الثور] منفرد، قلق، له مظهر مختلف عن سائر الحيوان الوحشي، حيث يكسوه اللون الأبيض، فيبدو مثل البرق أو السيف المسلول.. فالصفة الدينية للثور الوحشي عند العرب توافيه من كونه رمزا للإله القمر... وتكتمل شروط صورته الأسطورية بتقلده السيف وتنكبه القوس. وقد أكثر الشعراء العرب من تشبيهه بالسيف وبالشعلة لبياض جلده. وأظهروا له قرينه النافذين مثل النبل، وجعلوه متفردا متميزا".[58]

وما أكثر تلك الأبيات التي اقترن فيها اسم "سيف الدولة "باسم "السيف"، مثال ذلك قول المتنبي:

–يُسمى الحسامُ وليسَت منْ مُشابهةٍ وكيفَ يشْتبهُ المخدُومُ والخدمُ؟[59]

–كلّ السيُوف إذا طالَ الضِّرابُ بـــها يمسّها غيرَ سيفَ الدّولةِ السّـــأمُ[60]

تعتبر الشجاعة قيمة عربية قديمة، ارتبطت بالفروسية والحروب، وهي أيضا "من المعاني التي ترتكز عليها الأساطير خاصة لما تكون شجاعة خارقة للمألوف تتجاوز بالإنسان مرتبة البشر، وكثيرا ما استمدت الأساطير دلالتها من هذا المعنى، فسمحت للخيال أن يؤسس معارك بين قوى غيبية أو فوق بشرية، وهنا تشترك الأساطير مع الشعر لاشتراكها في الخيال".[61] وقد فقدت السيوف عبر المثالين صفة الفعل المرتبطة بها (الضرب)، لتتحول إلى البطل /سيف الدولة، فهو أصل وأساس وجودها.

*لكل من البطل والثور الوحشي أعداء، لكن النصر حليفهما في الأغلب .

* اقتران كل منهما بالجانب المقدس والأسطوري ، فكلاهما معبود، نظرا للمكانة المحتلة لهما لدى المجتمع والناس.

2–أسطورة الفرس:

عظم العرب منذ سالف عهدهم الخيل، وبلغ ذلك عندهم مبلغا عظيما، مقارنة مع غيرهم من الشعوب، فاهتموا بها، وأكرموها، حتى أنهم كانوا لا يهنئون إلا بثلاث أمور: غلام يولد، أو شاعر ينبغ، أو فرس تنتج .[62] وقد ارتبط الفرس بالتراث الديني القديم عند العرب، وعاش في الذاكرة الثقافية عند شعراء العرب منذ الجاهليين، على أنه حيوان مقدس يرمز للآلهة الأم/الشمس.و من هنا كان ارتباطه بالمطر والماء بشكل عام، إذ أن الأسطورة الدينية قد ربطته بصفة "ذت بعدن"، التي تتصف بها شمس

الشتاء بالذات، لأن شمس الصيف كانت تتصف بالصفة "ذت حمم" أي الملتهبة المتوهجة.[63] من هنا يمكن القول أن أنماط التعبير والتصوير، التي سادت الشعر الجاهلي اتصلت اتصالا وثيقا بالتاريخ المقدس عند الجاهليين، وكان منشؤها الرواسب العقدية .[64] وكثيرا ما نرى في شعرهم ارتباط الخيل بالمطر. وكانت تجيء كثيرا "في صورة الخيل المتوترة المتحفزة التي تهبط بسرعة الغيث المسترسل المنسكب الذي يتلقاه الإنسان بخوف وتهيب ...فالشعراء كلهم يعتمدون في وصفهم للخيل على فكرة المطر، ويكونون في أوصافهم عالما أشبه ما يكون بعالم المطر .."."[65]

ولا أدل على ذلك من قول "**امرئ القيس**" في بيته المعروف:

–مِكرّ مِفرّ مقبْل مدبْر معا كجلْمودِ صخر حطّه السّيْل مِنْ عل[66]

وهناك أساطير حاولت أن تقدم رؤيتها حول خلق الخيل، منها : الأسطورة التي تقول بخلق الفرس من الريح، والتيمن شأنها أن تجعل منه وسيلة وواسطة بين العالم الأرضي وعالم الطيور، وذوات الأجنحة، وهي تنسجم في الخيال والأحلام مع معنى الارتفاع والارتقاء والتسامي.[67] ومما سبق يمكن القول أن المتنبي أعطى بعدا أسطوريا للحرب الحمدانية –التي قادها سيف الدولة– بما يقفز بنا من البعد الواقعي للحرب إلى البعد التخييلي المحلق.

وهناك أسطورة ثانية تقول أن الخيل مخلوقة في أصلها من الماء، ويقال أن هذه الأسطورة تتصل بقصة سليمان.[68] حيث إن أصل خيل سليمان —حسب بعض الروايات الأسطورية– هو الماء، ولا غرابة في ذلك، ففي أساطير الخليقة أن ذلك أصل كل شيء. وفي بعضها أن أصل نشأة الكائنات من المحيطات كما هو الشأن عند السومريين والبابليين، والمصريين والكنعانيين وغيرهم.[69]

وفي روايات أخرى، نجد تنويعات أخرى، فإذا أصل الخيل هو الماء والريح معا،فهي مائية هوائية في آن، لأنها كانت خيلا خرجت من البحر لها أجنحة، خصه الله بها على حد قول بعضهم.[70]

فالمعاني الرمزية المتصلة بكل من الماء والريح، والجنح والخضرة، وزمن الخلق وكيفيته والغاية منه، تؤكد شرف هذا الحيوان وتنزله منزلة مرموقة لا تخلو من رمزية دينية اجتماعية قديمة.[71]وجملة القول —من خلال ما سبق– أن الفرس شبيهة بالماء والريح، ومنهما الاثنان خرجت في الأسطورة.[72]

ومن أمثلة اقتران الفرس بالماء في شعر المتنبي الحربي قوله:

–ترَاهُ كأنّ الماءَ مرّ بجسمـــــهِ وأقْبل رأسٌ وحْدهُ و تليـــــلُ[73]

–و لاَ ترِدُ الغدرانَ إلاّ وماؤُهـــا منَ الدّمِ كالرّيحانِ فوْقَ الشّقائقِ[74]

–وَ تسعدني في غَمرة بعدَ غمرة سَبوُحٌ لهاَ منهَا عَليهَا شَوَهـــــدُ [75]

ومن أمثلة اقتران الفرس بالطيور، قول المتنبي:

–و هُن مع الغزلان في الوادِ كُمَنٌ وهُنّ معَ العقبْان في النيّق حوّمُ [76]

–تبُاري نجُوم القَذْف في كُلّ ليلةٍ نجُوُمٌ لهُ منهُن ورْد وأدْهـــــمُ [77]

تجاري الخيل –في المثال الأول،– العقبان في السماء في سرعتها وخفتها، وهي سمة الخيل المعدة للحرب (الضمور)، أما في المثال الثاني فنلفي الخيل تسابق النجوم لخفتها أيضا، وسرعتها في العدو حتى أصبحت هي ذاتها نجوما على سبيل المجاز، من هنا يضفي الشاعر سمة التقديس على حرب الممدوح /البطل (سيف الدولة)، حينما يقتبس الشاعر من النص الديني، إذ نجوم القذف هي النجوم التي ترجم بها الشياطين في حال تنصتها على الملأ الأعلى. وكذا الحال بالنسبة للخيول، التي غدت بديلا للرماح يرمى بها الأعداء، من باب الغلو والمبالغة التي عرف بها الشاعر "لا بل إن هذه الخيل تجوب البحار فلا تعرف القرار، وتزاحم الحيات في موطنها، والسيدان (الذئاب)، والغزلان في الوديان، والعقبان في أعالي الجبال، إنها إذن حاضرة في كل مكان عموديا وأفقيا، لا تعترف بالقيود أو الحدود ،و ما ذاك إلا من ملامح الأسطورة."[78]

و في بعض المواطن الأخرى ،يذكر المتنبي الخيل ككائنات خارقة، وهو بذلك يعاضد أساطير الجن في الجاهلية، الذين رفعوها إلى مرتبة الجن والسعلاة، فيستعيد ذلك في شعره، نحو قوله:

–حاَل أعدَائنا عَظيم وسَيف الـــ دولة ابن السيوف أعظَم حـاَلا

كلّما أعجَلوا النّذيرَ مَسيـــــرَا أعجَلتهم جيادَه الإعجَـــالاَ

فأتتهم خوارَقُ الأرْض ماَ تحـــْ مل إلا الحَديدَ والأبطْـــالاَ

خافياتِ الألوان قَد نسَجَ النّقـ ـعُ عليهَا براقعاً وجـــــلاَلَا

حَالَفته صدُورُهاَ والعَوالَـــــي لتخوضَنّ دونهَ الأَهـــــوَالَا

ولتَمضنّ حيث لاَ يجد الرّمـــ ـحُ مدَاراً ولاَ الحصَان مجالاَ [79]

فالمتنبي استمد معاني أسطورة الجن في نعته لخيول سيف الدولة، التي تجاوزت طاقتها الحد المعقول، في تحملها مشاق الحرب وأهوالها، وقد تجاوز الأمر قوة التحمل إلى الوصف الخارجي لها، إذ تكاد لا تبين، فتخفى على الرائي ألوانها، وقد رام المتنبي من خلال الوصف الأسطوري للخيل جانب المبالغة، الذي يخدم الدعاية لقوة بني حمدان، وللاستعداد المادي الجيد، والمتمثل هنا في الخيول المعدة للحرب. ولم

يكن المتنبي في كل استمداداته من الأساطير السابقة مجرد مستهلك، بل كان يضيف جديدا إلى معانيه يتجاوز بها السياق الأصلي، إلى سياق يعبر عن موقفه هو من سيف الدولة، وحروبه مع أعدائه.

3-أسطورة الناقة:

تنوعت الأساطير التي جاءت في ذكر الناقة قديما، وتعددت، فقد كان من العرب من يزعم أن من الإبل ما هو وحشي يسكن أرض وبار، وهي من مواطن الجن.[80] كما قدسوا هذه الإبل، واعتبروها سفينة صحرائهم، ممثلة نموذجا للصبر والجلد عندهم قبل مجيء الإسلام، ولا أدل على هذا التقديس من عبادة قبيلة"طيء" في القديم جملا أسودا، وكذا من تحريم الجمل والناقة "سائبة" و"بحيرة"، وعدم انتفاع أصحابها بها، وكذا الأمر مع "الحامي" من فحول الإبل إذ خلف عشر إناث متتاليات ليس بينهن ذكر.[81] هذا، واعتبرت الناقة رمزا للخصب والحياة والبقاء .[82] وما إلى ذلك من دلالات تحمل معنى تقديس هذا الحيوان.

وقد وظف "المتنبي" هذه الصورة المتوارثة عن التصور العربي القديم، فحين يصف المتنبي رحلته، يوظف الناقة في حركتها الدؤوبة سيرا نحو الممدوح، طمعا في نيله وكرمه، فالناقة هي الوسيلة التي يحقق من خلالها الشاعر الحياة والعطاء، مستثمرا ما في هذه الناقة من صفات الجلد، والقدرة على تحمل المشاق في سبيل هذه الغاية، يقول:

-تركْنا منْ ورائي العيسَ نجْدا ونكّبْنا السّماوةَ والعِراقا

-سَلي عنْ سيرَتي فرَسي وسَيفي ورمْحي والهَملّعَة الدّفَاقا [83]

وقوله:

-لَم يَتركوا لي صَاحبا إلا الأسَى وذَميلَ دِعبلَة كفَحلِ نَعام [84]

وقوله يهدد ممدوحه بالرحيل صوب مصر:

-أرَى النّوى تقتَضيني كلّ مرحَلةٍ لا تستقلُّ بها الوخّادَةُ الرُّسُمُ[85]

إن عبارات "الهملّعة" في البيت الأول، و"دعبلة" في البيت الثاني، و"الوخادة الرّسم" في البيت الثالث، تحيل إلى صفة ناقة الشاعر وهي السرعة، كما هي رمز للصبر والجلد في رحلته نحو ممدوحه، وتتجلى رفيقا وأنيسا في الرحلة الشاقة والصعبة،ف" تسلية الهم والحاجات والتعزي بالقلوص أو البازل، وقطع اللبانة وتناسي الحب بها سبيل أسرت شعرنا العربي القديم".[86] فتذلل عليه الناقة جميع ذلك في سبيل البحث عن عطايا وكرم الممدوح، متخذا منها رفيقا في صحرائه الموحشة.

فالشاعر عاش حياته ممتطيا راحلته، وقد حمل معه همه وشعره، مرفوق بحمولات أسطورية تجذرت في نفسه، ناشدا الانعتاق من ربقة الحياة القاسية التي يحياها، باحثا عن السعادة المفقودة، والكمال بواسطة رموز عبرت عن تجربته الراهنة،متحللا من دلالاتها العقدية القديمة.

4-الزمن:

لجأ المتنبي في سبيل وصف رحلة الممدوح إلى بلاد الأعداء، ورحلته هو كذلك نحو ممدوحه بواسطة زمن يوحي للوهلة الأولى بواقعيته ومنطقيته، لكنه في السياق الشعري يتحول من دلالته المألوفة ليتخذ أشكالا رمزية لدلالات جديدة،فالزمان في الأساطير القديمة:"هو زمن مطلق، إذ يمكن استعادته من خلال الطقوس، ذلك أن من يمارس شعيرة من الشعائر قديما مثل الحلق والطواف أو الأشعار والذبح، يسمو على الزمان والفضاء الدنيوي ويتجاوز التاريخ [...] زمن ليس يعترف بالحواجز، وليست الطقوس والاحتفالات الجماعية العربية القديمة سوى تجسيم له".[87]

وقد انزاح "المتنبي" في بعض أبياته الشعرية –في قصائده السيفية–عن دلالات الزمن الطبيعية، من خلال الأحداث التي يرتبط بها،يقول في وصف رحلته حو ممدوحه:

-سَلكتُ صروفَ الدّهرِ حتّى لقيتُهُ على ظهرِ عزمٍ مُؤْيَداتٍ قوائمُهْ[88]

فالزمن–في البيت–غير محدد، يستغرق فيه الشاعر مع الدهر في حركة دؤوبة لا تعرف بدية ولا نهاية، سيرا نحو ممدوحه، فتختفي المسافات، وتفاصيل الأمكنة، ويصبح الزمن ضبابيا، لدخوله دائرة الإطلاق واللاتناهي، ويصبح استمراريا، وظفه الشاعر بهذه الصورة ليصف سرعته في الوصول إلى الممدوح، فاستعان بالزمن الأسطوري كرمز يروم من خلاله المبالغة، التي تقاطعت مع رحلة الشاعر الغرائبية.

وفي سياق آخر يتخذ الشاعر من عنصر الزمن رمزا لصعوبة هذه الرحلة، يقول:

-تركْنا منْ ورائي العيسَ نجْدا ونكّبْنا السّماوةَ والعِراقا
فمَا زالَتْ تَرى واللّيلُ داجٍ لِسَيفِ الدّولةِ المَلِكِ ائتِلاقا[89]

اختصر الشاعر–في البيت–عنصر الزمان، متحررا من كل تفاصيله الزمنية التي قد تتخلل لحظة وأخرى أو مكانا وآخر في قصده نحو ممدوحه، فوصف ميله عن طريق السماوة وطريق العراق، وقد ترك نجدا وراءه، عن طريق المبالغة في الوصف، حيث جعل صورة الممدوح بمثابة الدليل الهادي لراحلته في حلكة الليل، في إشارة ضمنية إلى ملمح أسطوري آخر يربط بين الممدوح والنور/ الضياء.إن تحول حلكة

الليل إلى نور قد تعكس أيضا رغبة "المتنبي" الجامحة لطلوع الفجر ليلتقي ممدوحه، مستسهلا صعوبات الطريق ومشاقه، ومخاطره، ومختصرا في الآن ذاته المسافات البعيدة الفاصلة بينهما.

ويقول الشاعر في سياق التوظيف غير المألوف لعنصر الزمان في أحد السيفيات يصف سير الممدوح نحو بلاد الروم:

-سَرَيْتَ إلى جَيْحان مِنْ أَرْضِ آمدٍ ثَلاثا، لَقَدْ أَدْناكَ ركضٌ وأبعَدا [90]

فالمدة أو المسافة التي استغرقها "سيف الدولة" في السير ما بين الأمكنة "جيحان" و"أرض آمد" قدرت بثلاثة أيام فقط، وهي مسافة لا يمكن لأحد أن يقطعها في هذا الظرف القصير، مما يوحي بأهمية معارك سيف الدولة لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار دافعها الديني.

فعنصر الزمن-بناء على ما سبق-يخرج من دلالته كما ورد في الأساطير الجاهلية باعتباره زمن الكمال والخلود، ليرتبط في سيفيات الشاعر بسياق وصف بطولات وحروب الممدوح.

5-أسطورة السلاح وعلاقتها بالسحر:

يذهب الباحث "قصي الحسين" إلى أن" جميع الصور المختلفة للسلاح بأنواعه، والتي شاعت في الشعر الجاهلي لا بد أن يشع منها البريق السحري، الذي كان يشع من صورة السيف المنقوشة كوشم على ذراع الفارس المغوار، وهذا هو السر الذي يقف وراء الكثرة الكاثرة من التفصيلات لمختلف صور السلاح في القصيدة الجاهلية الحماسية ."[91]

ولا شك أن تفصيل الشاعر للسلاح المعد خصيصا للحروب له وقع نفسي شديد في نفوس الأعداء، خاصة إن كان السلاح حادا، جيدا، لامعا، إذ لطالما اهتم الشاعر القديم بهذه الصفات، من ضياء ولمعان وحدة، لما في ذلك من أثر ارتبط بالسحر عند الإنسان القديم، فـــ "هذه التفصيلات المتنوعة في الصورة...تكاد تشي بصورة دعائية ذات عناصر حسية، عمد الشاعر إلى تشكيلها تخويف للأعداء، وترهيبا لهم. وربما كانت نوعا من الحرب النفسية التي يلجأ إليها الإنسان في المرحلة المبكرة من حياته، تماما كما يلجأ إليها في عصرنا الحاضر، وذلك من أجل الوقاية من الحرب، أو من أجل ذب الرعب والخوف في نفوس الأعداء، بحيث ترتعد فرائصهم وتهلع قلوبهم، فيفرون عنها وجلين خائفين مذعورين ."[92] ولم يخف على المتنبي وأبي فراس توظيف هذا الجانب السحري، من قبيل المعاضدة بالاستعادة، في شعرهما الحربي، مستلهمان ذلك من التراث الشعري، نمثل لذلك بقول المتنبي:

نمثل لذلك بقوله:

–قوَاضٍ مواضٍ نسْجُ داودَ عنَدها إذا وَقعت فيه كنَسج الخَـــدرنَق[93]

–المخْفرينَ بكلّ أبيضَ صـــــَارم ذِمَم الدّروع على ذوِي التّيجانِ[94]

–تَهدِي نواظِرها والحربُ مظلمةٌ مِن الأسِنّة نارٌ والقنا شمَـــــعُ [95]

فكلّ من الدرع (البيت1)، والسيف (البيت2)، والأسنة (البيت3) تجمعها مقومات مشتركة هي: [+السلاح]، [+الحدة والمضاء]، [+اللمعان]،[+شدة الفتك]، [+ضمان النصر]، [+هزيمة العدو]...

ولعل البيت الذي يقول فيه المتنبي :

–وَ ماَ نجَا من شفَار البيض منْفلتٌ نجَا ومنهُنّ في أحْشَائه فزَعُ[96]

يبين بجلاء الأثر النفسي للسلاح (السيف) اللامع الحاد في نفوس الأعداء، والهلع النفسي الذي خلفه فيهم قبل جسومهم، ومما لا شك فيه، أن ذلك لم يخرج عن مبدأ القوة الذي انتهجه المتنبي في حياته برمتها، فارتباط الضياء واللمعان بالسلاح يمكن اعتباره "ضوء القوة أو هديها وإنارتها في دروب الحياة. علينا أن نستضيء ونسترشد بالقوة في حياتنا".[97]

فالمتنبي في توظيفه الأسطوري للسلاح، يكون قد عاضد النص الجاهلي، مستعيدا دلالاته وقيمه، وترسيخ خلفياته.

6–الطقوس الدينية:

تعد "التمائم" واحدة من العادات التي عرفتها العرب منذ القديم، والتميمة " هي خرزة رقطاء كان العرب يطلقونها في أعناق أولادهم اتقاء للعين ".[98]وقد عثرنا على هذه العادة في شعر الشاعرين، ومن أمثلة التناص مع هذا الطقس قول المتنبي في سياق حديثه عن غزو سيف الدولة لقلعة الحدث المتاخمة للروم:

–هلِ الحدَثُ الحمْراء تعْرفُ لوْنها وتعْلم أيّ السّاقيَيْن الغمائمُ

سقتْها الغمامُ الغُرّ قبْل نزُولـــــه فلمّا دنا منْها سَقتْها الجَماجم

بنَاهَا فأعْلَى والقَنا يقرْع القَـــنا ومَوْج المنَايا حوَلها متلاَطـم

وكَان بهَا مثْل الجنون فأصْبحتْ ومنْ جُثث القتْلى عليْها تمائِم[99]

امتص الشاعر عبر نسيج هذا الخطاب الطقس الديني الموروث، المتمثل في تعليق التمائم، إلا أنه انزاح به لتأدية دلالات جديدة يمليها الموقف والسياق، حيث حول التمائم من كونها الخرقة التي تعلق لدفع الأذى والشرور، المترتبة عن العين أو الحسد، لتصبح عبارة عن جثث القتلى التي تعلق على الجماد (القلعة)، ليهدأ الروع والهلع الذي أصابها، من قبيل التشخيص، وهي إضافة فنية فيها لمسة إبداعية.

ويقول المتنبي في معنى دفع العين، باعتبارها مصدرا للمصائب والشرور في اعتقاد القدماء:

-ولوْ لمْ أخَفْ غيرَ أعْدائهِ عليهِ لبشّرْتهُ بالخُلودِ[100]

وظّف الشاعر الطقس السابق-الذي يربط العين بوقوع الشر- في سياق الخوف على الممدوح من أن يصيبه الشر والسوء بسبب حسد الأعداء له، مما يوحي بمكانة الممدوح بين قومه وشجاعته الفذة.

الخاتمة:

أظهر البحث حول تجليات الأسطورة في سيفيات الشاعر"المتنبي" عن النتائج الآتية:

-بقاء الملامح الأسطورية راسخة في أذهان الشعراء،ومنهم المتنبي، رغم محاربة الإسلام لها لاسيما ما تعلق بالطقوس الوثنية، فآثارها بقيت عالقة، فشكّلت مصدر إلهام للشعراء، متخذين منها رمزا فنيا يعبرون من خلاله عن رؤيتهم وموقفهم.

-بالرغم من احتذاء "المتنبي" الطابع التقليدي للقصيدة الجاهلية وما فيها من مطالع افتتح بها قصائده "طللية، غزلية"، فإنه أطلق العنان إلى خياله ليسبح في الموروث الفكري الجاهلي ليعبر عن طموحاته، ومكانة أمير حلب الرفيعة، التي لاقت صدى واسعا في نفوس معجبيه، حيث وظف هذا الموروث الأسطوري كرموز لقيمة بطله، وشجاعته في الحروب، وأهميته في إرساء صرح الدولة.

-تنوّع-إذن- حضور الإرث الأسطوري في شعره، مستفيدا من اللاوعي الجمعي، فجاء خادما لمقصدية"المتنبي" وتجربته الشعرية، فقد استطاع إلى حد كبير أن يتشرب المعاني الأسطورية القديمة، ليوظفها توظيفا جديدا مخالفا لما عهدناه في أصل معناها، أي في سياق وصف حروب الممدوح.

-إن تنوّع هذه الرموز الأسطورية شمل عناصر عديدة: كالحيوان، والإنسان، ومظاهر الطبيعة، والطقوس الدينية.

-تمركزت الرموز الأسطورية-على تنوعها- في أكثر سيفياته على وصف الممدوح وبطولاته، فقد شكل حضوره في شعره علامة بارزة، حيث اعتبره الشاعر صورة من ذاته، التي طالما سعى إلى تحقيقها وتجسيدها على أرض الواقع، فسخّر شعره فيه، محوّلا شخصه إلى رمز لجميع القيم النبيلة، والقوة الفذّة التي يعلو بها

عن أقرانه، حتى غدت صورة الممدوح تكاد تغطي مكامن النقص لدى الشاعر، مما أدى إلى تخليد اسم الممدوح والشاعر معا، لارتباط اسم كل منهما بالآخر.

هوامش:

[1].سنوسي لخضر، توظيف الأسطورة في الشعر العربي المعاصر، (دت)، منشورات جامعة أبو بكر بلقايد (تلمسان، الجزائر)، ص: 98.

.أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، (دت) ، دار صادر (بيروت) ، مادة (سطر)، ص: 363.[2]

[3]. صبري محمد خليل، الأسطورة والتفكير الأسطوري. الموقع الرسمي للدكتور: صبري محمد خليل 06-12-2011

[4]. .سورة الأنعام، آية: 25.

[5].فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، (دت)، دار علاء الدين للنشر(دمشق، سوريا)، ص:19،20

[6]. علي البطل، الرمز الأسطوري في شعر بدر شاكر السياب، (1982)، شركة الربيعان للنشر(الكويت)، ص: 27،28.

[7]. ينظر: محمد علي السلايمي، الأسطوري في شعر المتنبي، (2013)، الدار التونسية للكتاب(تونس)، ص:16، 17.

[8]. ديانا ماجد حسين ندى: الأسطورة والموروث الشعبي في شعر وليد سيف، (2013)، (مذكرة ماجستير)، كلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين، ص: 85. وينظر أيضا: القمني سيد: الأسطورة والتراث، (1992)، سينا للنشر والتوزيع (القاهرة)، ص: 19، 20.

[9]. المرجع نفسه،ص:85 .

[10]. محمد علي السلايمي، الأسطوري في شعر المتنبي،ص:25.

[11].أبو القاسم الشابي، الخيال الشعري عند العرب، (1995)، دار الكتب العلمية(بيروت، لبنان)، ص:37.

[12]. عبد المجيد حنون، "الموروث الأسطوري في الأدب العربي الحديث والأدب المقارن"، مجلة إشكالات، معهد الآداب واللغات، المركز الجامعي لتامنغست، الجزائر، العدد11، فبراير، 2017، ص:185.

[13]. عبير يونس، الأساطير مفاتيح الخيال والإبداع، البيان.
albayan.ae/paths/books/2010-04-24-1-238989

[14]. محمد علي السلايمي، الأسطوري في شعر المتنبي، ص:38.

[15]. محمد عجينة، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، (1994، 2005)، دار محمد علي للنشر، دار الفارابي (تونس، لبنان).ص: 20.

[16]. المرجع نفسه، ص: 23.

[17].المرجع نفسه، ص: 24

[18]. ينظر: عبد المعطي شعراوى، أساطير إغريقية، (دت)، مكتبة الأنجلو المصرية(القاهرة، مصر)، ص:6..

. أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، (2001)، دار إحياء التراث العربي(بيروت، لبنان)، ص:229، 230[19].

[20]. مرتضى الزبيدي، تاج العروس، (دت) ،دار الهداية (الكويت)، ص: 25، 26.

[21]. محمد علي السلايمي، الأسطوري في شعر المتنبي، ص: 41

[22]. علاء رجب، المعرفة.صفحة موسوعية شاملة. 22 جانفي 2014.www.facebook.com/alaa.maarefa

[23]. الموقع نفسه.

[24]. أبو القاسم الشابي، الخيال الشعري عند العرب، ص:39.

[25]. حسين قاسم عبد العزيز، دراسات عن أساطير عرب شبه الجزيرة قبل الإسلام مدخل لفهم معتقداتهم، (2014)، المركز الأكاديمي للأبحاث (العراق-تورنتو-كندا)، ص:195، 196.

[26]. أبو القاسم الشابي، الخيال الشعري عند العرب، ص:42.

[27]. محمد عجينة، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، ص:331.

[28]. المرجع نفسه، ص:321.

[29]. ينظر: المرجع نفسه، ص: من: 322 إلى 325

[30]. المرجع نفسه، ص:333.

[31]. المرجع نفسه، ص:334

[32]. المرجع نفسه، ص:ص:241.

[33]. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، (1965) ،دار إحياء التراث العربي (بيروت)، ص:79.

[34]. محمد عجينة: موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، ص: 356

[35].محمد عبد المعيد خان، الأساطير العربية قبل الإسلام، (1937)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة (القاهرة)، ص: 66

[36]. عبير يونس، الأساطير مفاتيح الخيال والإبداع، البيان.موقع سابق

[37]. علي البطل، الصورة في الشعر العربي ،حتى آخر القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها وتطورها، (1983)، دار الأندلس(الشارقة)، ص:183-184.

[38].المتنبي،الديوان، (1983)، دار بيروت(بيروت)، ص:347.

[39]. المصدر نفسه، ص: 412.الحبائل:الشرك.

[40]. قصي الحسين، أنثروبولوجية الأدب، دراسة الآثار الأدبية على ضوء علم اللسان، (2009)، دار ومكتبة الهلال(بيروت)، ص:250.

[41]. المرجع نفسه ،ص:249.

[42]. محمد علي السلايمي، الأسطوري في شعر المتنبي، ص:176.

[43]. المتنبي،الديوان، ص:387.

[44]. المصدر نفسه، ص:383.

[45]. المصدر نفسه، ص:381.الثقلان:الإنس والجن.طرّا:جميعا.

[46]. المصدر نفسه، ص:397.المسخ:تحويل الصورة إلى ما هو أقبح منها.الخرانق:ج خرنق،هي الأنثى من أولاد الأرانب.

[47]. المصدر نفسه، ص: 398. طوال قنا: الرماح الطويلة.

[48]. المصدر نفسه، ص:376. الوابل:المطر الغزير. الطّلّ: المطر الضعيف. أي كثير أفعالهم قليل بالنسبة إليك وقليلك كثير بالنسبة إليهم.

[49]. نصرت عبد الرحمن، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، (1982)، مكتبة الأقصى(عمان، الأردن)، ص:33.

[50].محمد علي السلايمي، الأسطوري في شعر المتنبي، ص: 176.

[51]. المتنبي، الديوان، ص: 404.أبرّ:أحسن إليه.عق:عصى.أعفى :العفو.البوار:الهلاك.

[52]. علي البطل، الصورة في الشعر العربي ،ص:186.

[53]. المرجع نفسه، ص:186.

[54]. المرجع نفسه، ص:188.

[55]. المتنبي،الديوان، ص:326.بوركت:دعاء.الديباج:ثياب حريرية.الوشي:نقش الثوب.العصب:ضرب من برود اليمن.

[56]. المصدر نفسه، ص:399.قائم السيف:مقبضه.غرار السيف:حده.

[57]. علي البطل: الصورة في الشعر العربي ، ص:189.

[58]. قصي الحسين، أنثروبولوجية الأدب، دراسة الآثار الأدبية على ضوء علم اللسان، ص:195-196.

[59]. [59]. المتنبي، الديوان، ص:364.

[60]. المصدر نفسه، ص:419.السّأم:الملال.

[61].محمد علي السلايمي، الأسطوري في شعر المتنبي، ص:149.

[62]. ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج1، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، (2001)، دار الكتب العلمية(بيروت، لبنان).ص:53

[63]. قصي الحسين: أنثروبولوجية الأدب، دراسة الآثار الأدبية على ضوء علم اللسان ، ص:243.

[64]. المرجع نفسه، ص:243.

[65]. المرجع نفسه، ص:243.

[66]. امرئ القيس، ديوانه، تحق وشرح: حنا الفاخوري،(دت)، دار الجيل(بيروت)، ص:45.

[67]. محمد عجينة: موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، (2005)، دار محمد علي للنشر، دار الفارابي (تونس،لبنان)، ص:285.

[68]. المرجع نفسه، ص:287.

[69]. المرجع نفسه، ص:288.

[70]. المرجع نفسه، ص:289.

[71]. المرجع نفسه، ص:289.

[72]. المرجع نفسه، ص: 344.

[73]. –المتنبي،الديوان، ص: 357.تليل: العنق.

[74]. المصدر نفسه، ص:129. ورد الماء:أتاه للشرب.الريحان:كل نبت طيب الريح.الشقائق:زهر معروف.

[75]. المصدر نفسه،.ص:319. أسعده: ساعده.الغمرة: الشدة.السبوح: الفرس كأنها تسبح في عدوها.

[76]. المصدر نفسه، ص:303. النيق: أعلى موضع في الجبل.

[77]. المصدر نفسه، ص:303. نجوم القذف: التي يرمى بها الشياطين.نجوم الممدوح هنا خيله.الورد من الخيل:ما بين الكميت والأشقر.

[78]. منجي القلفاط، الحماسة في الشعر العربي القديم، (2011)، منشورات كارم الشريف(تونس)، ص:81.

[79]. المتنبي، الديوان، ص: 409.

[80]. الجاحظ، الحيوان، ص: 154، 155

[81]. محمد عجينة، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، ص: 282.

[82]. المرجع نفسه، ص: 290، 291.

[83]. المتنبي، الديوان، ص:289.

[84]. المصدر نفسه، ص:426 .

[85]. المصدر نفسه، ص:333.

[86]. وهب روميه، الرحلة في القصيدة الجاهلية، (1975)، اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين(فلسطين)،ص:56.

[87]. محمد عجينة، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، ص:537، 538.

[88]. المتنبي، الديوان، ص: 259.

[89]. . المصدر نفسه، ص:289، 290.

[90]. . المصدر نفسه، ص: 371.

[91]. قصي الحسين، أنثروبولوجية الأدب، دراسة الآثار الأدبية على ضوء علم اللسان ،ص:284

[92]. المرجع نفسه، ص:286.

[93]. المتنبي، الديوان، ص:364.

[94]. المصدر نفسه، ص:416.

[95]. المصدر نفسه، ص:313.

[96]. المصدر نفسه، ص:313.

[97]. وهب أحمد رومية، شعرنا القديم والنقد الجديد، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مارس/آذار، 1996، ص:330.

[98]. يوسف حلاوي، الأسطورة في الشعر العربي، المعاصر، (2011)، منشورات كارم الشريف(تونس)، ص:119.

[99]. المتنبي، الديوان، ص:385، 386.الحدث:قلعة بناها سيف الدولة في بلاد الروم.الغر:البيض.القنا:عيدان الرماح.تمائم:العوذة يتقون بها مس الجن.الطريدة: ما طردته من صيد أو غيره.الخطي: الرمح.

[100]. المصدر نفسه، ص: 53.